## (٣٣) الأمريكى بين الانتماء واللاانتماء : خاتمة

### بقلم : هينيج كوهن

إن الكتابات التى وردت فى الفصول السابقة من هذا الكتاب تغطى تاريخ الولايات المتحدة ابتداء من «صخرة بلا يموث» حتى «الحدود الجديدة» لجون ف. كينيدى ومداها واسع ؛ إذ إنه يشمل الأدب واللغة والتاريخ والسيرة والعلوم والسياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد والمعمار والموسيقى. وبعض هذه الكتابات ومؤلفوها مألوفون فى العالم كله. وعلى الرغم من قيمة الآخرين ووزنهم فإنهم مازالوا معروفين على نطاق ضيق حتى فى البلاد التى أنجبتهم ، لكن برغم هذا المدى فى الزمن والموضوع ودرجة الألفة فإنهم مجرد عينة أو مقدمة لما تولد عن أمة ضخمة متنوعة ومعقدة ، أمة مازالت تنظر إلى نفسها على أنها فى حالة مخاض. فكل هؤلاء كانوا على سبيل تحديدالاختيار كمنطلق للتعميمات فيما بعد ، لكن التعميم يخضع هنا لنظام على الرغم من أن الشواهد ليست كاملة كما كنا نحب ، وهى الشواهد التى بلغت حد التبسيط المبالغ فيه.

فى هذا الكتاب الذى يحتوى على اثنين وثلاثين بحثاً تتضح الهياكل التنظيمية ، وتبرز نماذج التشابه والاختلاف من خلال المضمون أكثر من مجرد المدى الواسع الذى تغطيه : فالمضمون ملتزم بمنهج المقالة التى تقوم بدور المقدمة لبحث أكثر شمولاً.

وتمدنا الأساليب الكلامية للهيبيز بالاصطلاحات المناسبة التى تعبر عن التناقض الذى برز فى الكتابات المختلفة فى هذا الكتاب ، منها : اصطلاحا «الانتماء واللاانتماء» :

فمعنى أن تنتمى أن تكون ملتزماً بالمجتمع ، أى المؤسسة التى تحتويك والتى ترتبط بها ، أو التى تحاول العيش داخلها أو إصلاحها.

أما اللاانتماء فلا يعنى فقط التساؤل حول جدية وقيمة الإجابات التى يقدمها المجتمع ، بل التساؤل حول التساؤلات والقضايا التى يعيشها بالفعل ، إنه يعنى انشقاقاً ثوريًّا كاملاً !

قد تكون اللغة مستحدثة لكن التناقض ، بين الانتماء واللاانتماء ليس كذلك بالطبع ؛ بل إن المرء يستطيع أن يؤكد أن التجربة الأمريكية المحضة تتكون من قدر أصيل من الانتماء ، ومن اللاانتماء الراديكالى ، ومن العودة – التى توغلت فى الحزن والحكمة – إلى الاندماج فى المجتمع . ومن الخصائص المميزة للأمريكيين سواء ظلوا داخل المؤسسة الاجتماعية ، أو خرجوا عليها ، أو خرجوا عليها ثم عادوا إلى أحضانها ، فإنهم ينظرون على الفور نظرة مثالية بل يحرصون على اللامنتمى وأسلوبه فى الحياة . وعندما يتشبع الكاتب بهذه النظرة فإن صورة اللامنتمى تبدو عادة متدفقة بالشباب ، فى حين يتمثل هيكله المقدس فى المراعى ، وأحياناً فى البقاع البدائية والنائية سواء فى الزمان أو المكان .

والشخص الذى يرتضى الانتماء يبدو بصفة عامة أكثر نضجا ، وعادة ما تكون بيئته حضرية . (وكان كين اللامنتمى الأول قد أصبح فى سنواته الأخيرة أول رجل يشيد مدينة ، وهى الحقيقة التى كان ميلفيل يحب تأكيدها) وعلى أية حال فإن الشىء المهم ليست خلفية هذا الشخص أو عمره ؛ فهذه كلها أمور نسبية ، إنها عملية رفض الموقف الأصلى بحثاً عن بديل له ، ثم إعادة النظر فى قرار الرفض بناء على التجربة التى قدمها البديل الجديد ، ثم تحديد سواء الالتزام بالبديل أو العودة إلى الأصل . والمرحلة الثالثة بكل عناصر الاختيار فيها هى التى تميز النموذج أو النمط الأمريكى عن الرحلات التى صارت مثلاً : كهبوط دانتى إلى الجحيم ، أو ما يسميه الألمان «بأساطير السائحين» .

ولقد صار من التقاليد أن هبوط البطل إلى الجحيم لا ينتج عنه سوى عودته إلى العالم وقد نضج وامتلك البصيرة الثاقبة . أما فى النمط الأمريكى فليس الاختيار دائماً بهذا الوضوح القاطع :

فأحياناً يصبح العالم زاخراً بالفساد والفوضى لدرجة أن مثل هذا الشخص يرفضه من أساسه .

وأحياناً ثانيةً يصبح الجحيم مكاناً ناعماً ومغرياً لدرجة أنه يفضل البقاء فيه !

وأحياناً ثالثة يكون هو نفسه الشخص غير المناسب للمهمة على الرغم من أن ذلك لا يكون بالضرورة نتيجة لخطأ ما فى طبيعته هو .

إن الثمن الذى يدفعه ، أى العقوبة التى تنهال عليه من جراء عدم انتمائه – تتمثل فى عجزه عن النضج أو فى موته : أى المعادل لعالم الهيبيز الطفولى ولتجربة تعاطى المخدرات . وبالطبع

فإن هذا النمط أو أى نمط آخر يمكن تطبيقه بلا تحديد دقيق لدرجة أنه يفقد معناه .

والكتابات المتعددة التى ألقينا عليها الضوء لم يتم اختيارها لكى تبرز هذا النمط على الرغم من أن كثيراً منها يقوم بهذه المهمة . بل يبدو النمط أكثر وضوحاً عندما تكون الأمثلة أو النماذج أدبية أساساً . وبدون إعادة الفحص التفصيلى لأعمال تم تحليلها بالفعل ، بل بمجرد تغيير البؤرة شيئاً ما فإننا نتساءل : مَن مِن الكُتاب الأوائل كان ملتزماً ؟ ومن من بين غير الملتزمين – فعلاً أو خيالاً – ظل غير منتمٍ ؟ وكيف دفع ثمن هذا الموقف ؟ ومن رفض الانتماء إلى المجتمع ، ثم عاد إلى حظيرته مرة أخرى ؟

بالنسبة للآباء الحجاج والآباء المؤسسين – فهذه كلها أقوال مأثورة أو ألقاب يمكن تطبيقها على كل من وليم برادفورد وبنجامين فرانكلين اللذين كانا بمثابة قائدين ملتزمين بالمؤسسة الاجتماعية :

فقد افترض برادفورد فى «عن مزارع بلايموث» أن تاريخه الذى يدور حول تأسيس مستعمرة بلايموث كان أساساً سرداً لتقدم الإنسان من خلال الرعاية الإلهية ، لكن مع الوقوع فى الخطيئة من حين لآخر صوب تحقيق الخلاص الروحى الذى قدره الله لهم .

وكان فرانكلين تلميذ براد فورد النجيب على المستوى الدنيوى . وكانت «سيرته الذاتية» – ضمن أشياء أخرى – تاريخاً شخصيًّا للتقدم الذى أحرزه تلميذه من خلال مجهوداته الذاتية ، وأيضاً عن طريق وقوعه فى الأخطاء من حين لآخر . إنه نجاح دنيوى فى الأمة الجديدة التى ساعد فى إنشائها .

وإذا كان تاريخ برادفورد متطلعاً بحرص وإصرار إلى المستقبل – فإن تاريخ فرانكلين ينهج النهج نفسه وإن كان من ناحية أخرى : فكلا الكتابين يقدمان نموذجاً للحياة الملتزمة ، لاحظ – على أية حال – أن برادفورد كان منفصلاً عن الكنيسة الرسمية الراسخة فى إنجلترا وقائداً لمهاجرين متطوعين ، وكان فرانكلين رجل الدولة العريق فى شئون الثورة الأمريكية . أليس هناك نوع من رفض المجتمع ثم العودة إليه ؟ إن أسئلة مشابهة تطرح نفسها فيما يتصل بكتاب «الفيدرالى» ، هذه السلسلة من المقالات السياسية التى كتبها ألكسندر هاملتون وجيمس ماديسون وجون جاى وثيقة التزام ؛ فهى زاخرة بالبصيرة الثاقبة والأمل ، وفى الوقت نفسه تتميز بالواقعية العنيدة فى كشفها لعيوب البشر ؛ وكان هدفها العمل على ترسيخ دستور الولايات المتحدة وتدعيمه . وتعد المقالات دعاية صريحة من أجل المؤسسة الاجتماعية . ومع

ذلك كانت هناك أيضاً بعض الأسئلة المثيرة للحيرة والاضطراب : لقد ساعد الشبان الذين كتبوا «الفيدرالى» فى صنع ثورة ، لكن فى خروجهم الراديكالى الثورى على المؤسسة الاجتماعية فى بريطانيا هل كانوا لامنتمين ؟ هل فرضت عليهم تجربتهم الثورية العودة إلى المجتمع بالتزام ذى دلالة أكثر من ذى قبل ؟ وبصفتها تجربة قومية إلى أى مدى تشكل الثورة الأمريكية نموذجاً فريداً ؟

أما سان جان دى كريفيكير فقد عاش أيضاً فى أثناء الثورة الأمريكية ، وتركت آثارها المقلقة بصماتها على «رسائل من فلاح أمريكى» . ونحن نعلم أن هذه «الرسائل» كانت بحثاً مبكراً حساساً لتقصى أبعاد التجربة الأمريكية ؛ لقد تساءل : «من إذن الأمريكىُّ هذا الإنسان الجديد ؟» وكانت الإجابة الفورية الأولى نوعاً من القصيدة الوطنية الرعوية . وقد عاش الفلاح جيمس – المتحدث بلسانه – فى عالم مثالى ؛ فهو متمتع بأحضان الطبيعة ، حر من القيود القديمة المتمثلة فى الدولة والكنيسة ، مؤمن بالتوسع والانتشار ، كريم ذو وعى بالمصير الشخصى والقومى ، لكنه يكتشف الخروج على كل قانون والسلوك الوحشى فى الحياة عند الحدود الغربية ، والرفاهية والقسوة فى مدن الجنوب التى تمارس الرق ، ويتحكم فيها التجار والمحامون ! وعندما تندلع الثورة الأمريكية يجد نفسه مضطرًّا إلى التخلى عن مزرعته والبحث عن ملجأ عند الهنود . وهنود كريفيكير ملتزمون بالفضائل البسيطة ، ويحيون بين أحضان الطبيعة : فقد تخلصت حياتهم من كل فساد المدينة ، لكنهم بدائيون لدرجة الطفولة الساذجة ! وفضائلهم قوالب جامدة ، ومستقبلهم غير مؤكد . هل كان الفلاح جيمس (لا منتمياً) ؟ هل كان يدرك وجه الخطورة فى سلوكه والثمن الذى يمكن أن يدفعه فى مقابل ذلك ؟

كانت شخصية الفلاح جيمس مجرد مقدمة فى كتاب دخل ميدان الأدب بالصدفة . أما ريب فان وينكل وليذرستوكنج – الشخصيتان الأدبيتان من خلق أول أديبين رائدين فى أمريكا – واشنطون إيرفنج وجيمس فينيمور كوبر – فكانا أكثر أصالة ورسوخاً وأكثر خصباً فى الأبعاد والتركيب : فى قصة إيرفنج يهرب ريب إلى جبل كاتسكيل ؛ ليتفادى من المسئوليات الأسرية ، وهناك يقابل غريباً ويتناول جرعة من شراب الهلوسة فينام نوم الموت لعشرين سنة ! وعندما يستيقظ ويعود – طبقاً للمرحلة الثالثة من نمطنا السلوكى – نراه عجوزاً ساذجاً كالأطفال غير متيقن حتى من هويته ! ويسعى للعيش عند تخوم مجتمع سبقه فى الزمن . فى

ملحمة ليذرستوكنج نتتبع حياة رجل تجرى فى عروقه الدماء الهندية والبيضاء ، وإذا كان ينتمى إلى الطبقات الدنيا للمجتمع فهو واحد من نبلاء مملكة الطبيعة : فعندما يجد نفسه محدوداً مقيداً بقوانين المجتمع فى حين أنه يبحث عن العون الروحى بين أحضان الطبيعة – ينطلق إلى آخر آفاق الغرب بطول طريق الاستيطان ، ثم نراه فى نهاية الأمر فى « البرارى » رجلاً عجوزاً يواجه شبحه غروب الشمس فى الغرب ! وعندما أنهكته السنون وبلغ منه الضعف كل مبلغ يعيش مرحلة يجب علينا ألا نمر عليها مر الكرام ؛ فهو يؤكد الحاجة إلى القوانين الاجتماعية التى قضى عمره كله محاولاً تجنبها ، وكان هذا شيئاً كثيراً بالنسبة لهذه اللمحة المتأخرة من الانتماء والالتزام . لقد عاش ليذرستوكنج سنواته الأخيرة بلا روابط عائلية باستثناء علاقاته بأصدقائه من هنود قبيلة بوانى . إنه لشىء عجيب أن تتحتم على أول شخصيتين مرموقتين فى المرحلة الأولى من مراحل الأدب الأمريكى الاستجابة بهذا الغموض للحضارة الأمريكية : أى يتحتم عليهما الخروج على المجتمع وعدم الانتماء إليه ثم تتحتم عليهما العودة إليه بمثل هذا الأسلوب المتحفظ !

وكان المؤرخ فرانسيس باركمان أقل غموضاً وتحفظاً : فمن خلال نظرة بطله بوسطون براهمين نرى الهندى الأمريكى نِدًّا معادلاً للامنتمى . كان بدائيًّا يعيش وسط جيران بدائيين متوحشين ، ولم يكن قادراً على ممارسة الحضارة ، وكان هذا كافياً للتيقن من نوعية مصيره ! ومن هنا كان الهندى على المدى الطويل موضوعاً للشجن والرثاء أكثر منه تهديداً يحسب حسابه ، مثله فى ذلك مثل البرية نفسها . وفى أثناء تتبع باركمان – الذى يبلغ من العمر الثالثة والعشرين – لمر أوريجون بحماس يقترب من الهوس – ترك لنفسه العنان لكى يتشبع (باللوحات) الخصبة الباهرة التى تقدمها حياة البرية ؛ لأنها ملامح عابرة ولأنه مجرد مشاهد ورحالة سيعود فى الوقت المناسب إلى الحضارة . لم تكن البرية ملجأ لباركمان . فقد كانت المكان الذى أثبت فيه قوة تحمله وتيقن فيه معتقداته .

ونظرتنا السريعة إلى الفصول السبعة الأولى من هذا الكتاب تكشف عن تقدم ذى مواصفات محددة : فهذه الشخصيات الرائدة – وليم برادفورد وبنجامين فرانكلين – كانت ملتزمة ومنتمية بالتحديد ، كذلك كان مؤلفو « الفيدرالى » . لكنهم انفصلوا جميعاً عن المؤسسة البريطانية وخرجوا عليها . وكان هذا شيئاً كثيراً بالنسبة للمرحلة الأولى من نمطنا . ويمثل الفلاح جيمس عند كريفيكير المرحلة الثانية . كان (لامنتمياً) لكنه من نوع ذى مواصفات مختلفة ،

وهو احتمال أن الهنود الذين بحث معهم عن ملجأ طبقاً لسجاياهم الطبيعية ربما لديهم القدرة على تحقيق مجتمع أفضل من المستعمرين الأمريكيين الذين خاضوا بحار الدم التى قتل فيها الأخ أخاه ! فعند إيرفنج هرب ريب فان وينكل من التزامات المجتمع ، لكنه عاد إليه فى النهاية . ومع ذلك ارتبطت عودته بالحقيقة التى تؤكد أنه فى أثناء غيبته حدثت ثورة ، وتغير وجه الحياة فى البلاد ، ولم يكن تغييراً إلى الأفضل بصفة عامة . ويعد ليذر ستوكنج (لامنتمياً) آخر يعود فى النهاية إلى حظيرة المجتمع بشكل ما ! إنه يعيش سنواته الأخيرة بين أحضان البرية ، وفى النهاية يعترف بالحاجة إلى القوانين المدنية ، ويحتفظ بإخلاصه لجنسه ، ويصر على مسيحيته الطبيعية . وعلى مستوى كل الأهداف العملية يعد هنود باركمان لامنتمين ، وهو نفسه – على حد الاصطلاح الشائع فى عصره – كان (لامنتمياً) «مرناً» أى من الهيبيز الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع أو إجازة الصيف . ويمثل ريب وليذر ستوكنج وباركمان مواصفات المرحلة الثالثة .

وعلى سبيل الاندماج فى حساسيته الفنية المبالغ فيها ينسحب رودريك آشر فى قصة بو «سقوط بيت آشر» من العالم إلى منزله الضخم المحاط بالخندق وذى الجدران الحجرية . وكانت الخلفية – على حد جملة رددها بو فى مكان آخر – «خارجة عن نطاق المكان والزمان» . ونحن نعتبرها مناسبة لشخصية رودريك الذى يعد (لامنتمياً) على حد قولنا نحن . هنا يظل أسير خيالاته وتأملاته حتى تنمو وتتضخم إلى الحد الذى تطغى فيه عليه تماماً . وكانت نهايته هى الجنون والموت !

وفى رواية هوثورن «البيت ذو الأسقف السبعة المائلة» لا يتأثر كليفورد بينشون وأخته هيبزيباه بالبيئة المحيطة بهما وينسحبان منها . وعلى الرغم من أن القاضى بينشون – ابن عمهما – قد أخطأ فى حقهما وهو الذى ينتمى إلى جيلهما نفسه ، وعلى الرغم من أنهما دفعا ثمن الخطيئة الأصلية التى ورثاها عن العقيد (الكولونيل) بينشون الذى أقام المنزل وأسس العائلة – فإن شخصية كل منهما تعتورها الثغرات أيضاً : الضحالة الواضحة وحب المظاهر عند كليفورد ، والتفاهة والتعالى الأجوف عند هيبزيباه ! وكانت مجهوداتهما الشخصية للعودة إلى المجتمع غير فعالة لدرجة تثير الرثاء ! وهما يشكران الظروف على عودتهما إلى البيت ، وهى النقطة التى يقول فيها كليفورد : «إنه بيت كئيب ياهيبزيباه ! لكنك فعلت حسناً بإحضارى إلى هنا !» وعندما يحل محلهما فى البيت جيل جديد تعلم كيف يهرب من هذا التأثير الشرير المدمر – فإنهما

يعيشان فى حالة من الطفولة التى لا تعبأ بأى شىء !(١) .

وإذا نحينا الأسباب والدوافع جانباً فإن إطلاق اصطلاح اللامنتمى على رودريك آشر أو كليفورد بينشون يبدو بمثابة خطأ تاريخى مثير للحيرة والاضطراب ! وبالرغم من ذلك فإنه ينطبق على مضمون الموقف إذا لم يتطابق هو وحرفية التعبير .

وتركز رواية هيمنجواى «والشمس تشرق أيضا» على الأمريكيين الذين يعيشون خارج وطنهم والأوربيين الذين هجروا أوطانهم إلى فرنسا وإسبانيا ، لكن الخلفية تبدو أكثر فورية وإلحاحاً من تلك الخلفية الوصفية الرمزية التى وجدناها فى بيت آشر أو بيت آل بينشون المطارد بأشباح الماضى والمشبع بتقاليد نيو إنجلاند : فعندما أصابتهم شرور تلك «الحرب القذرة» فإنهم يسلكون بمزيج من عدم المسئولية ، والرثاء للنفس ، وسرعة البديهة ، والأسلوب المميز . وعلى المستوى الظاهرى وإلى حد ما فكل هذه الشخصيات – الراوى جيك بارنز ، والليدى بريت آشلى التى أحبها لكنه لم يستطع ممارسة الحب معها ، ومايك المفلس السكير الذى تخطط بريت للزواج منه وروبرت كون الرومانسى المزمن – كل هؤلاء لا ينتمون لأى مجتمع ! وطبقاً لكلمات جيرترود ستاين التى يتبناها هيمنجواى كأحد أقواله المأثورة ( على الرغم من تحفظاته التالية ) – فإن كل هذه الشخصيات أعضاء فى «الجيل الضائع» :

إن روبرت كون الأمريكى الشاب الذى يربط نفسه بجيك هو الذى يمثل اللامنتمى الفاشل ! فقد جاء إلى أوربا لتأليف الروايات بدافع من سذاجته الرومانسية واستسلامه لأوهام النفس وخداعها . وهو شخصية جذابة موهوبة حريصة على مراعاة شعور الآخرين ومشحونة بالحماس والشغف الرهيب . وعلى النقيض من جيك – الذى يعتبر صورة شائهة منه – فإنه غير قادر على تعلم كيفية السلوك داخل الحدود الضيقة للوضع الإنسانى ، فى مطلع الرواية تسأل إحدى هذه الشخصيات العالمية كون : «قل لنا على الفور دون أن تفكر ! ماذا أنت فاعل إذا استطعت أن تفعل شيئاً أنت تريده بالفعل؟» فيجيب كون : «لا أعلم ! . . أعتقد أننى قد أفضل لعب كرة القدم مرة أخرى فهى الشىء الذى أعرف كيف أمارسه الآن ؟» وعلى الرغم من امتلائه بالإرادة وبالإحساس بذاته فإن كون يفسد دوره كإنسان غير منتم وتنتهى به الحال إلى فوضى وحيرة «ووضع من النمو المتوقف» . وقد أطلق هيمنجواى على هذا النمط تعبير «الرجال الأمريكيين الذى لم يشبوا عن طوق الصبا !»(٢) .

وطبقاً لتعريف القاموس فإن كلمة «بابيت» تطلق على «رجل الأعمال أو الرجل المحترف

الذى ينتمى بلا تفكير إلى المعايير السائدة للطبقة الوسطى » .[٣] إنه باختصار رجل الأعمال الأمريكى العظيم الذى يعرف كيف يتعامل هو وكل الأطراف المعنية ؟ وقد اشتقت هذه الكلمة من عنوان رواية سنكلير لويس التى تسمى فيها الشخصية المحورية جورج ف . بابيت : ينتمى بابيت تماماً إلى مجتمعه ، لكنه قام فى زمنه أيضاً بدور اللامنتمى وهو ما يتمثل فى « تمرده » الذى يشتمل عليه الكتاب . وعندما أدرك عقم حياته وجدبها فإنه يشن هجومه العنيف على هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم ألمعيين وبوهيميين ، ويخوض لجج السياسة الليبرالية ، لكن حجته واهية ، ولا تحمل فى طياتها أية هالة من هالات المجد ؛ مما يدفعه إلى سحب كل ما أدلى به من أقول . وعلى النقيض من روبرت كون فهو على المستوى البدائى الأول قد استفاد من تجربته ، وتنتهى الرواية بتحديه لأصدقائه وأفراد أسرته الذين أثار غضبهم عن حق : وذلك بقبوله لزواج ابنه الهارب الذى أراد الامتناع عن الاستمرار فى دراسته بالكلية ، فيقول لابنه الذى لا يصلح لشىء : « لم يحدث أن فعلت شيئاً على الإطلاق أردت أن أفعله فى حياتى كلها ! . . . أنت تعرف ما أردته بالفعل ثم نفذته . »

فى السادسة عشرة من عمره يمر الصبى آيك ماكاسلين فى قصة فوكنر « الدب » بعملية اندماج داخل النظام الاجتماعى « للرجال والصيادين الذين يملكون الإرادة وقوة التحمل والتواضع والمهارة للاستمرار على قيد الحياة . » وهو يتعلم فى الوقت نفسه أن ميراثه الشخصى الذى انتقل إليه ملوث تماماً مثل مجتمعه ! وعندما يشب قانوناً عن الطوق فإنه يرفضه ؛ فهو يكسب عيشه باحتراف النجارة ويكسب احترام المجتمع لشجاعته فى الصيد ؛ لكن المرأة التى أراد الزواج منها ترفضه ؛ لأنه لن يقبل ميراثه ! وفى النهاية نراه رجلاً عجوزاً يناهز الثمانين تقريباً . لم ينجب أطفالاً ، لكنه عرف باسم « العم آيك » بالنسبة لأبناء وحفدة الرجال الذين علموه الصيد ![٤] . وبرفض آيك لميراثه فإنه يظهر إدراكاً جميلاً للمسئولية الأخلاقية ، لكنه يرفض مجتمعه أيضاً ويخطو خارجاً عنه . ، إنه لم ينتم إليه وفشل فى العودة إلى أحضانه ، وتصرفه تصرفٌ خاص جدًّا بل أنانى وهروبى إلى حد ما !

وفى الواقع فإن هناك طابعاً من الأنانية والتهرب يميز طابورنا هذا من اللامنتمين : فيدمر رودريك آشر الفنان المتقوقع داخل نفسه ، فى حين يبدو كليفورد بينشون الضعيف الباحث عن اللذة وقد يمم وجهه شطر حياة لا يملك فيها سوى الانغماس المتردد الضعيف لذاته ! أما روبرت كون الرومانسى المراهق فمن الواضح أنه يعود للانضمام إلى فريق الرجال الذين يتحتم

عليهم العيش مع المرأة التى تحتقرهم ! أما حياة بابيت الخاصة الزاخرة بالجبن والفراغ فهى الضياع بعينه ، ويتحتم عليه العيش والعمل من أجل ابنه الذى لا يبشر مستقبله بأى خير ! فى حين يعانى آيك ماكاسلين الأمرين ؛ لأن اهتماماته شخصية ولا ترتبط إلا بالماضى ، إنها تنعكس على الداخل بحيث لا ترى إلا نفسها ، وذلك أكثر من انطلاقها إلى الخارج حيث المجتمع والمستقبل .

وباختصار هناك معدل مباشر بين قسوة تحديد الموقف والمدى الذى يستطيع فيه اللامنتمى العودة إلى المجتمع . إن رودريك آشر – اللامنتمى بالكامل – إنما هو من ثم مجرد عملية انتحار ، وآيك ماكاسلين الذى يدرك ما يجب عليه عمله لكى يطهر نفسه (ومجتمعه) بقدر استطاعته وبقدر ما تتيحه له غريزته أن يفهم ما الذى عليه أن يفعله لكى يرى الدب (بن العجوز) – لا يتمكن من القيام بهذا ، وبهذا لا يستطيع العودة تماماً إلى مجتمعه ، بل يقضى حياته فى حزن الإحباط !

وعلى سبيل التناقض – بل إن المرء يستطيع تحديد نوع من التناقض المشرق – هناك الإيجابيات المؤكدة لهؤلاء الذين رفضوا الانتماء ثم عادوا إلى أحضان المجتمع ، عادوا بلا أى تحفظات أو شروط !

يكفى نموذجان تدليلا على ذلك : الشخصية الرئيسة فى كتاب ثورو « والدن ، أو الحياة فى الغابات » وقصيدة ويتمان « أغنية لنفسى . » فكلا الكتابين ينهض على سرد السيرة الذاتية للرجلين اللذين يعمدان إلى الانغماس داخل نفسيهما ، والانفصال عن المجتمع وذلك لكى يتعلما كيف يعيشان بأسلوب أكثر اكتمالاً فى داخل المجتمع ؛ كلاهما يركز على الذات ، لكن بأسلوب يمتد إلى الخارج تماماً تجاه الكون . وعلى الرغم من أنهما يتشابهان فى الأساس فإنهما يختلفان فى ملامح هامة تجعلها مفيدين كمثلين على التجربة الأمريكية المتميزة التى تتمثل فى اللاانتماء ثم العودة . إن الاختلاف الرئيس يكمن فى أن « والدن » تسرد أحداثاً حقيقية مرتبطة بالأرض وذلك بأسلوب « اليوميات » فى حين أن « أغنية لنفسى » تنهض على الملاحظة الصوفية التى لا تهدف إلى الإقلال من شأن الدلالة الرمزية لحقائق الحياة فى الغابات ، أو من شأن القاعدة الراسخة التى تنهض عليها البصيرة الثاقبة التى تتغنى بالذات فى « أغنية لنفسى » . هذا الاختلاف يبدو أوضح فى النغمة وزاوية الرؤية .

كان ثورو رجلاً عمليًّا ، وغالباً ماكان مستعدًّا للشغْب والعراك من أجل إصراره على

مواجهة الحقائق ، لم يكن هناك أى لغو أو عبث فى موقفه ، أو أى تضخيم فى الأحجام والأبعاد ، أو أى دعاء أو تظاهر . وفى حين أن « والدن » سيرة روحية ، فهى مرتبطة بالأرض والتفاؤل بالحياة ! بدأ ثورو الكتاب بقوله : « عندما كتبت الصفحات التالية عشت بمفردى فى الغابات على مبعدة ميل من جارى ، وفى بيت شيدته بنفسى . . . والآن أعيش فى كنف الحياة المتحضرة مرة أخرى . » فى والدن أدى ثورو (يوميًّا) طقوس الاستيقاظ ، وتحية الفجر ، والاستحمام فى البركة . وبأسلوب منهجى لاحظ حقائق العالم الطبيعى : الدورة (اليومية) ودورة الفصول ، البذور التى تتساقط على الأرض لكى تمد جذورها وتنمو ؛ وذوبان جليد البركة فى الربيع ؛ والحية البطيئة الكئيبة التى تدب الحياة فى عروقها مع انتشار أشعة الشمس الدافئة . فالتأكيد هنا يتركز على التجدد والعودة . كان ثورو مقيماً عند بركة والدن لكى يتحول إلى « مقيم فى كنف الحياة المتحضرة مرة أخرى » . فقد أدرك فى عزلته معنى التزامه نحو المجتمع .

أما ويتمان فقد كان صاحب رؤية استطاع أن يكتب قصيدة صوفية ذات العنوان المشبع بالبهجة والنشوة : « أغنية لنفسى » . ولم يسع أسلوبه الصوفى إلى الإقلال من قيمة مباهج الحياة أو إلى التحول إلى الحياة القاسية الصارمة . إنه يسمو بالأنا ويمجد الجسد ، وليست الخطيئة هى التى يسعى إلى تطهيرها ، بل الإحساس بالذنب يبدأ تغنيه الديونيسى بقوله : « إنى أحتفل بنفسى وأتغنى بنفسى . » وتحمله أجنحة الهروب المنتشى إلى داخل عزلة نفسه ، لكن الحركة المطلقة هى صوب « الخارج والخارج والخارج إلى الأبد . » فمن منطلق الذات بلغ آفاق الخارج التى لمسها واحتضنها ، ثم تجسدت فيه وامتزجت به ! وكانت ذروة الرؤية قد تمثلت فى « الشكل ، الاتحاد ، الخطة » . : ويتجسد هذا الاتحاد الصوفى على شكل اتحاد جنسى ، ذلك أن ويتمان يرى فى الفعل الجنسى جوهر كل من الأنانية والازدواجية . وقد تحول العنصر الصوفى إلى مجال المادة بتجسده فى الجسد نفسه ؛ والجسد يمكن بدوره أن ينتقل إلى عالم الروح ؛ لأنه إذا تخلص من إحساسه بالذنب فإنه يعود إلى حالة من البراءة الأصيلة . وتبدأ رحلة ويتمان بالانسحاب وتنتهى بالعودة ، وذلك على سبيل تأكيد كل من الهوية الفردية والهوية التى ترتبط بالذوات الأخرى فى اتحاد صوفى بين الجسد والروح ، اتحاد يسمح لكل منهما بالاحتفاظ بكيانه المتسق المتكامل فى ذاته .

* * *

مثل هذه الكتابات التى تمت مناقشتها فى تلك الفصول الاثنا والثلاثين تعد بمثابة «المعالم» على مستويات عدة إنها تمثل إنجازاً فنيًّا وفكريًّا ، وتلمس التطلعات والاتجاهات والأفكار والقيم المرتبطة بالمجتمع الذى أنتجها ؛ إنها تميز الوضع المحلى والناس الذين يعيشون عليه ، وتقدم الخطوط صوب الاتجاه الصحيح . لقد رأينا أن كثيراً من هذه الكتابات تشترك فى نمط متماثل يمكن أن نطلق عليه بدقة اصطلاحات محددة ؛ لتنضم إلى المفردات الأمريكية المعاصرة : اللامنتمى والملتزم . إنه لأمر ذو مغزى أن هاتين الكلمتين أمريكيتان ، ذلك أنه تمت استعارتهما من التراكيب اللغوية التى ابتكرها الشباب ، وتم تطبيقها على القوالب اللغوية التى استوعبتها تنويعة من الكتابات الأمريكية ابتداء من فترة الاستيطان الأول حتى الآن . إذن ما القاعدة العامة التى يمكن اشتقاقها من هذا ؟ ماذا يقول لنا هذا عن التجربة القومية والشخصية القومية ؟

نحن الأمريكيين ملتزمون بالحرية ليس فقط كهدف ، ولكن كوسيلة لتحقيق المسئولية الاجتماعية ، لكننا نجد ثمة مخاطرة فى هذا الشأن مما يجعلنا نشعر بالقلق هكذا ندرك رفض المؤسسة كمرحلة عادية من العملية التعليمية . بل إننا نربط فى الفن والحياة خلفيات محددة وحركات فى اتجاهات معينة بهذه المرحلة : مثل النكوص إلى الطفولة ، والاندماج داخل الذات ، والانطلاق فى الفراغ الجغرافى الهائل صوب الحدود الغربية ، أو فى الفراغ النفسى المرتبط بالعالم القديم . لكن مرونتنا تصل إلى آفاق مهولة عندما يفضل اللامنتمى عدم العودة ، ويأخذ على عاتقه مسئوليات مجتمعنا ومتطلباته واتجاهاته المهتزة .[٥] هكذا تصبح استجابتنا للامنتمى – سواء فى الواقع أو فى الخيال – متناقضة . نحن نبجل الآباء المؤسسين ونجد إلهاماً فى ثورو ووايتمان ؛ لأنهما – بأسلوبهما الخاص – رفضا الانتماء ثم عادا أدراجهما . ونحن نتذكر مغامرات ليذرستوكنج وريب فان وينكل بحب ، ونتلوها على أطفالنا ، لكننا لا نأخذها على محمل الجد ؛ لأن عودتنا لم تكن كاملة . إن بو يرعبنا قليلاً بالإيحاءات المظلمة التى تدور حول هؤلاء الذين لم يعودوا .

وموجز القول أننا اخترنا مخاطر الحرية لكى نحصل على النضج والمسئولية ، لكنه لم يكن اختياراً سهلاً ، وهذا ما يظهره قلقنا أحياناً !

## ملاحظات

١ – وصفت فيبى – رمز الخلاص للجميع – كليفورد بتلقائية أمام القاضى بينشون بأنه «سيد مهذب ورجل كالطفل !» (الفصل الثامن) . وفى نهاية هروبهما – الذى لم يكتب له النجاح – من المنزل تصلى هيبزيباه : «يا إلهى ، ألسنا أطفالك ؟» (الفصل السابع عشر) .

٢ – «حياة فرانسيس ماكومر القصيرة السعيدة» : «تأمل ويلسون أن بعضهم يظل كما هو ، مجرد صبية لمدة طويلة ، وأحياناً طول حياتهم . وتظل ملامحهم صبيانية عندما يبلغون الخمسين ! إنهم الرجال – الصبية الأمريكيون العظام ! : »

٣ – قاموس ويبستر الجامعى السابع الجديد .

٤ – انظر قصة فوكنر «خريف الدلتا» .

٥ – إننا نخاف حتى عناصر المقيمين الأمريكيين التى توحى بأنها ترفض الانتماء . انظر هنود باركمان الذين يعدون بمثابة النماذج الأولى للقوميين السود ، والآمشيين أتباع الفيلسوف السويسرى جاكوب أمان ، واليهود الهازديين القادمين من شرق أوربا وغيرهم ممن أختاروا البقاء خارج المؤسسة الاجتماعية . وعندما تصبح مثل هذه العناصر تهديداً كهنود باركمان فإنه يمكن أن تكون استجابة المجتمع زاخرة بالشر ، أو يمكن التسامح معها على الرغم من اعتبارها نشازاً أو النظر إليها من على «كعنصر ملون» !


| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ١٩٨٠/١٥٧٤ |
| الترقيم الدولى | ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٩٠٨ – ٧ |

١/٧٨/٣١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)